العدد 8 لسنة 2023
No. 8 – Feb. 2023
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
P-ISSN 2710-0952 E- ISSN 2790-1254

بناء المكان المغلق في شعر هيثم الزبيديّ

أ. م. د بسام علي حسين
Drbassamali78@gmail.com
ضحى فاضل كريم
edhmaarbm26@utq.edq.iq

الملخص:
يعدُّ المكان من أهم العناصر التي تشتغل عليها المنظومة الأدبيّة عموما والسرديّة على وجه الخصوص، لذلك بات المكان مشكِّلا لكثير من الأجناس الأدبيّة التي يدخل في بنائها، والشعر من تلك الأنواع الأدبيّة التي اهتمت برسم المكان والاشتغال عليه، ومن هنا جاء بحثنا ليناقش تشكُّل المكان المغلق في شعر هيثم الزبيديّ ليكشف عن البناء المكانيّ المغلق وتشكلاته في المنظومة الشعريّة التي باتت تأخذ من البناء السرديّ كثيراً من المفاهيم التي يعمل عليها الشعراء الحداثيون، فالمكان المغلق من أهم المواضيع المحفزة للعمل الأدبيّ وهذا ما سنكشفه في بحثنا الحالي.
الكلمات المفتاحية: المكان المغلق، هيثم الزبيدي، الصورة الشعرية.

Building the closed place in the poetry of Haitham Al-Zubaidi

Dr. Bassam Ali Hussein
Duha Fadel Karim

Abstract:
It is considered as one of the most important elements of the public and literary system in general and the Shariah in particular. Haitham Al-Zubaidi to reveal the closed spatial structure and its formations in the poetic system, which is now taking from the narrative structure many of the concepts that modernist poets work on.
Keywords: the closed place, Haitham Al-Zubaidi, the poetic image.

التمهيد:
يعد المكان من العناصر الرئيسة في أغلب الفنون الأدبيّة، فهو ((الفسحة التي تحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم))[1]، إذ يمثِّل ((بدء تدوين التاريخ الإنساني، ويعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش، للوجود، لفهم الحقائق الصغيرة، لبناء الروح، للتراكيب المعقَّدة والخفيّة، لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة))[2].
ويؤدي المكان دوراً مهماً في الأعمال الأدبيّة (السرديَّة) خاصةً، فالمكان مفهوم أدبيّ يشير إلى الفضاء تناولته الدراسات النقديّة بكثيرٍ من التأكيد، والاهتمام بوصفه مشكّلاً رئيساً لأنواع أدبيّة.
من هنا رحِّلَ مفهوم المكان الى الدراسات النقديّة التي تختص بالشعر، إذ إنّه يرتبط بعلاقات واسعة مع بقيّة العناصر المكونة لهذا العمل، فله علاقة وثيقة مع اللغة، ومع الصورة، ومع الأسلوب، ومع الذات، ومع الشخصيّة، كذلك للمكان علاقة مع الأغراض الشعريّة المختلفة، فهو يثير خيال القارئ، ويؤجج في داخله مختلف الأحاسيس، فأول شعور يلتصق بذهن قارئ الشعر العربيّ القديم ذلك الحضور الطاغي للمكان، وهو ما نشاهده في المقدمات الطلليّة بكثرة، وكأن الشعر كُتِبَ ليعبر عنه، وكأنّ المكان هو المطلب الأول في كل إبداع شعريّ[3].
فالمبدع ينطلق من تجربته، وتعالقه مع المكان، و((يُعدُّ المكان الذي يقطنه الشخص، ويتحرك ضمنه، ويتفاعل معه، مرآة لطباعه))[4]،إذ نجد أنّ بعض الأماكن تترك صبغتها على ساكنيها كالأماكن الدينيّة، وأماكن العمل التي يخضع فيها الشخص لكل القوانين، والأنظمة الخاصة بها.
أما في المفهوم الأدبيّ، فالمكان ((ينتمي إلى عالم الأفكار أكثر من انتمائه إلى عالم المادة؛ لأنَّه وليد الشعور والفكر... يُعدُّ المكان الأدبيّ انعكاساً للواقع في مُخيلة الأديب، وشعوره وتمثيلاً فنيّاً له))[5]، إذ ينقل الأديب بقصديّة الأماكن التي يُريدها إلى القارئ محملاً إياها كل المشاعر، والأفكار التي تُمثل انعكاساً واقعيّاً لشعوره، والمكان ((كالإنسان تماماً له أبعاده التي تكشف عمقه، وروحه ومن ثمّ جماله

ورونقه))[6]، ففي بعض الأحيان يتحدث الأديب عن المكان، ويصفه وكأنَّه يصف إنسان يتجاذب معه أطراف الحديث، ويستمع له وينظر إليه بنظرة حانية، وكثيراً ما تنشأ علاقه وطيدة بين الإنسان، والمكان الذي يحلّ فيه، فالمكان((غير مستقل عن الإنسان كما نعرف، فقد ارتبط دوماً بالفعل البشريّ، وبالعواطف الإنسانيّة))[7].

من هنا يعد المكان المغلق قسيما للمكان المفتوح في تشكيل الفضاء المكانيّ للشاعر هيثم الزبيديّ، إذ إنَّ تجربة المكان في شعره شملت المكان بمختلف صوره، وفي أغلب الأحيان ارتبط الفضاء المكانيّ عنده بهاجس القلق المصاحب للأحداث التي مرّت عليه، فالمكان في النصوص هو كائن يتفاعل معها ويتحرك من خلال فضاءاتها، يستخدم المبدع معه مختلف الآليات الكتابيّة ليحرك المكان ويجعله يتجاوز موقعيته اللغويّة ويندمج في سياق المنتج الأدبيّ[8].

وتظهر أهميّة أي مكان عن طريق ((رؤية الإنسان للمكان الذي يأهلُه))[9]، وهذا ما يحدد انغلاق المكان أو انفتاحه، فالإنسان يدور في فضاء من العزلة حتى وإن حاول إظهار العكس، فهو ((يعيش في داخل جسده الذي مثل الدائرة الأولى، ثم داخل منزله الذي مثل الدائرة الثانية، تليها دائرة الحي، فالمدينة، فالمقاطعة فالدولة فالعالم فالكون))[10]، إذ يعيش في ((داخل القواقع المغلقة بعضها داخل بعض رغم مظهره الخارجي الذي يوحي باتصاله وتوحده مع كل هذه المجموعات))[11].

فالمكان المغلق يمثِّل ((مكان العيش والسكن، يحوي الإنسان سواء أكان ذلك بإرادته أم بغير إرادته))[12]، كان تعامل الزبيديّ مع الأمكنة المغلقة متنوعاً، إذ إنَّ هذه الأمكنة تشكّلت بحسب طبيعة المرحلة الزمنيّة التي مرّ بها، والمرحلة التي مرّت بها تجربته الشعريّة.

المكان المغلق في شعر هيثم الزبيديّ:

إنَّ من أهم الأماكن التي اشتغل عليها الشاعر هيثم الزبيديّ في شعره هو (القبر)، لذلك يعدُّ القبر أو المقبرة من أوضح الصور المكانيّة المضادّة في قصائده، التي تبين الصراع بين الحياة والموت، وهذا الصراع ينسحب على ثنائية إثبات الوجود من عدمه (أكون أو لا أكون) التي شغلت الشعراء طويلاً ،وحتى شغلت الإنسان العادي فصارت هاجس العصر، إنَّ الموت غير المرئي أصبح موجوداً مكانيّاً متجسدا من خلال القبر والمقبرة في قصائد الزبيديّ، والشعر العراقيّ المعاصر يضج بهذا اللون الشعريّ القاتم نتيجة الأحداث المتوالية على أرض العراق والحروب المتنوعة التي مرّت عليه .

على الرغم من إثارة القبر لمشاعر الفزع والاغتراب والخوف في نفس الإنسان إلا إنّه يمثل بُعداً إنسانيا نتيجة احتوائه على جثامين أشخاص كانوا بالأمس القريب يشاطرون معنا حياتهم، وتأسيساً على ذلك فأن تأملات المقبرة تحولت الى قضايا مكانيّة مغلقة[13]، يلجأ لها الشاعر عند شعوره بالضياع والاغتراب النفسيّ ليبث مشاعره ، ولعلّنا نتلمس هذا المعنى بوضوح في قصيدة (صغار التوت):

لدى أي مقبرة نلتقي ؟
جميع المقابر غير التي في قرانا غبية
وكلُّ شواهدها أنكرتنا ..
يزفُّ الصباحُ الغريبُ بأشلائنا للضفاف الغريبةِ
رحنا نفتّش عن بقعةٍ لا نُبيتَّمُ فيها ولا نُزدرى
ولا يأكُلُ الليلُ فيها القرى
ولا يُفترى
على أرضها أنها اكلتنا
ولا يفقؤون عيونَ النخيلِ
لكي لا يرى
جماجم إخوته في الطفولة
إذ يقطفون التي أينعت
والتي ليسَ بعدُ
يدسّونها تحت هذا الثرى[14]

يتساءل الشاعر عن مكان اللقاء بعد كل ذلك الضياع، والمُفارقة أنّه حدد مكانًا مغلقاً موحشاً له فهو حتماً سيكون في مقبرة، ولكن أي مقبرة سيكون اللقاء فيها؟ فهو يُفضّل أن يكون اللقاء في مقابر القرى لا غير؛ لأنّ المقابر في بقيّة بقاع الأرض كلها تتسم بالغباء، إذ هي لا تعرف الشاعر وتجهله، حتى أن شواهد قبورها تُنكره، فالصبح إذا لم يكن في مقبرته يُصبح متوحشاً يهاجمه ويقطع جسده إلى أشلاء، و ينثرها في ضفاف غريبة، لذا فهو يُفتش عن بُقعة في الارض لا يُعاد تيتمه فيها وليس فيها ظلم وانسبها هي (مقابر القرى).

على رغم دلالة الغربة والوحشة التي تلازم ذكر المقبرة إلّا أن للقبر دلالة أخرى فأحياناً يكون مكاناً لاستذكار مناقب من يُدفن فيه، وفي أغلب الأحيان تنسحب دلالة القبر إلى النهاية الحقيقية والحتمية لكل إنسان على وجه الأرض[15]، فالمقبرة ((في هذا التشكيل الشعريّ رمز مكاني مغلق ومعادل للعراق المعاصر وما يطفح به من أشكال الموت والضياع والقبر معنى من معاني العدمية والفناء))[16].

أمّا في قصيدة (شجر الرحيل) نلاحظ أن القبور تتكون داخل كل إنسان في مرحلة ما من حياته قال الشاعر:

مغفلاً كان الربيعُ ، يسدّ نافذة الندى – عمداً – بوجهي
ثمّ يطلق ضاحكاً هذا الدوار عليَّ
كي اتقيأ الأزهار
والأزهار لم تدرك بأني لم أزل غضّاً على حمل القبور[17]

القبر هنا قابل للحمل وكأنّه كيان متحرك يستطيع الإنسان حمله في مرحلة معينة من حياته، لكن الشاعر يقف في وجه الربيع لتنبيهه أنّه لا زال في مرحلة مبكرة على حمل الهموم والأحزان ما زال لديه متسع من الوقت ليُبقي الأزهار في داخل نفسه، فالصراع قائم بين التفاؤل ممثلاً بالأزهار، والتشاؤم متمثلاً بالقبر في أغوار المبدع لذا أسقط الشاعر على المكان حالته النفسيّة المتأزمة عن طريق رفض حمل القبر في مرحلته هذه.

فالحالة النفسيّة المتأزمة تجعل نظرة الإنسان، لكلّ ما في الحياة مغلقة وضيقة حتى يرى أمامه وجه الأرض متلبساً بالسواد والظلام فضلاً عن ضيق الأفق الرحب أمامه:

ولليل عينان مفقوءتان
ونظارة أفعمت بالرمد
فلا شكّ لو تفتح الباب فجراً على لا أحد
ستورق من تحت تل النفايات مقبرة
في تخوم الأبد[18].

يمر الشاعر بحالة نفسيّة متوترة لذا يلجأ لفكرة (التطهير أو الخلاص)، فكل ((قصيدة يكتبها الشاعر هي تخلص من حالة التوتر تلك بحيث يستعيد الشاعر توازنه))[19]، والتطهير الذي نعنيه أنه يترجم حالته النفسيّة على شكل كلمات، ويصور أماكن على غير صورتها الواقعيّة فعندما تكون نظرته سوداوية والباب مغلق أمامه، عندئذٍ ستورق مقبرة من تحت تلّ النفايات، إذ تنعدم الأحلام والطموحات ويكون الموت فقط هو المشهد المسيطر على النص.

فالمقبرة تقف في الجانب المضاد فهي تستجيب لصوت الجلاد حين يصيح وكأنّها أحد جنوده تساهم في إنهاء حياة الأبرياء:

مأمورٌ في القريةِ صاح
فانتفضت قطعانُ قبورٍ
رَقَصت في غابةِ صفصافٍ
غادرها الضوء[20]

زاوج الشاعر بين مشاعر الخوف من المأمور وبين المرئيّات، والحادثة تدور في مكان مظلم، لزيادة الوحشة إذ إن غابة الصفصاف التي تمثل مكان رقص القبور هي غابة مظلمة، يمزج الزبيدي بين ما هو معقول وهو (مأمور في القرية صاح)، وبين ما هو غير معقول (فانتفضت قطعان قبور)، ليعلن رفضه

لأمر هذا الظالم، استعان الزبيدي بمكان مغلق موحش؛ لأنَّه ((وعاءً حسياً تصبُّ فيه الشحنات الانفعالية المتوترة))[21]، إذ يتكثف الظلم عندما يكون المكان متطابق مع الظالم ضدّ الأبرياء.

وعندما يصف حجم القبر فهو يحدده بحجم الجثمان الذي يحتويه، فيكون القبر صغيراً إذا دُفن فيه طفل صغير العمر، ولكن تأثير القبر سيكون أشدُّ وقعاً على النفس، وليس شرطاً أن يكون القبر في الأرض فربما تكون حدود القبر السماء التي هي انعكاس لقبر الأبرياء ولكن يبقى الشعور بانغلاق المكان ملازماً للقبر أينما وجد:

و قبرٌ صغيرٌ
على ربوةٍ بين تلك الغيوم
يطلُّ على الأم
شقٌّ صغير بحجم فتىً غائب منذ حين
منتظراً مطراً دافئاً
يبلل تربتهُ وشموع
دخان بخورٍ
مساء الخميس تباركه أمه الزائرة[22]

جسَّد الشاعر أبعاداً نفسيّة إنسانيّة مؤثرة عن طريق هذه القصيدة، عرض الشاعر صورة من صور الحياة المؤلمة، وهي صورة فقد الأم لأبنها ليعبر عن مدى قسوة الحياة وضيقها عن طريق صورة القبر الملازم للأم، فهي تراه في كل مكان حتى وإن جالت بنظرها نحو السماء المكان المفتوح تبقى نظرتها مرتبطة بمكانٍ مغلق وهو القبر، والشعر يمثل الروح الشفافة التي تعبّر عن الطبيعة الانسانيّة بكل حالاتها عن طريق الشاعر بما يحمل من مشاعر جياشة[23]، لذا نرى هذه الجزئيات العاطفيّة في قصائد الزبيديّ، فالحزن حالة نفسيّة تجعل الإنسان يرى كل ما في الوجود كئيباً وهذه الرؤية لا تقتصر على مكان دون آخر، والشاعر عندما يشتدُ به الوجد يلجأ للمقبرة أو الى مكان مغلق ليبث معاناته قال في قصيدة (بكاء الميتين) :

في ساعة النزع الأخير
من التسكع في رصيفٍ موحشٍ
أوقفت أول مقبرة..
أوقفت أول حارس ..
كلباً يفتش في أزقتنا
ليسرق ما تبقى من عشاء البارحة ..
أوقفت كلّ قصائدي
أوقفت خيباتي وساعات المخاض
أوقفتها ..
أخرى .. فأخرى
ثمّ أخرى
فاستفاض بعينها قلق السؤال[24]

عندما يعيش إنسان في واقعٍ مؤلم مثل (واقع الحرب) مثلاً تصطبغ نظرته بالعتمة، فهناك ((فرق كبير بين أن تعيش المأساة وأن تدركها، وهو نفس الفرق بين أن تكون حزيناً وأن تدرك معنى حزنك، فبين الرؤية الغائمة والإدراك الناصع يتراوح الوجود))[25]، لذا نستطيع تلمس هذا المعنى من خلال نظرة الشاعر، فهو يعيش في حالة نزع الروح فلا يرى من سبيل أمامه سوى المقبرة فراح يوقفها حتى يستطيع أن يفرغ همومه وأعبائه، ويسألها عن سبب خيباته وساعات ألمه، ومن المفارقات إن حارس المقبرة الذي اختاره الزبيدي هو كلبٌ سارق (فالحارس) لا بد له من أن يكون أميناً لكنّ الشاعر صوره بهذا الشكل ربما لتكثيف الدلالة على الشعور بالوحشة والألم والخيبة الذي يمرُّ به.

وعندما يتحدث الزبيديّ يتألم من يستمع له كثيراً حتى يصل ألمه الى حد البكاء، قال في قصيدة (حوار بنكهة الزيتون):

حدثتها ..
فبكى الربيع على دمي
والجسر والطرقات والغدران والبجع المسافر والعيون السود
والصبيان والشوك المقيم بجانبيَّ ...
وبكت هي
فرحتُ أعدّ أعوامي لعل العدّ يكفي
أحصيت ساعات النواح على دمي لا زلت أجهل لونها
ثمّ الخطى من بيتنا حتى القبور[26]

لقد حشد الشاعر الكثير من المفردات اللغويّة المتناقضة، للتعبير عن عمق الألم حتى يُظهر الحالة التي يمرّ بها، إذ ليس الحزن والبكاء مقتصراً عنده على البشر، وإنّما الموجودات الجامدة من (جسر– طرقات– الغدران– الشوك) تتشاطر معه مشاعر الحزن، والمواساة فعندما يتحدث معها تبكي، وبذا تُصبح حياته محصورة في الطريق من بيته حتى المقبرة فقد وضع نفسه في مكان مغلق، هذا المكان هو تجسيد لحياته التي عاشها، وهذا لا يعني أنّه يترجم حالته النفسيّة الخاصّة كما يبدو في الظاهر، إنّما القصيدة تمثل ((حالات كثيرة وأحداث وإشكالات نمطية متكررة، تعبر عن قطاعات أو شرائح عريضة في المجتمع، إن عملية الكتابة الأدبية في حقيقتها عبارة عن التحام في النسيج الاجتماعي من أجل تكوين عالم مميز يشبه الواقع دون أن يكونه وإن دلّ عليه أو شفّ عنه))[27].

إنَّ المسحة المتشائمة تلقي بظلالها على النصوص الزبيدية وبالتالي تشيع الأمكنة المغلقة للدلالة على النهاية والألم حتى عندما يخاطب الغيمة في السماء:

أيا غيمةً بين هذا السحاب
أمطري حيث شئتِ
فأنّى هطلتِ
وأنّى حللتِ
ستسقين مقبرةً من شباب[28]

عند قراءة هذه المقطوعة يتبادر الى الذهن وللوهلة الأولى أنها تدل على مكانٍ مفتوح، بيد إن الشاعر قصد تحويل الكلام الى مكان مغلق، إذ ((برز الفضاء المكاني المغلق وهو يحمل غير قليل من قوة التأثير، التي تجعل المتلقي لا ينسى ولو لوهلة أنه أمام نص تتحرك موجوداته ضمن خلفية أو إطار مكاني يستوعب الحدث بشكل كلّي))[29]، كأنّ الأرض أصبحت قبرا كبيرا ففي أي مكان ستمطر الغيمة سيكون هذا المكان مقبرة .

وفي قصيدة (وردٌ صناعي) يشبه الشاعر المدن الخالية من النبات الطبيعي والحدائق بالمقبرة التي تبعث شعوراً بالوحشة :

شجرٌ صناعيّ
مشاهد ظلّه في الليل
تبعثُ ، مثل مقبرةٍ ،
شعوراً مفزعاً في الروح
أشباحاً . . .
وقناصين أمريكان . .
ذبّاحين . .
أجساداً معلقةٌ على جسرٍ[30]

يصف الشاعر المدن إذا خلت من النباتات كيف تبعث في دواخلنا مشاعر الوحشة حتى تتحول الى شبه مقبرة وبذا فالشاعر ينقل المتلقي عن طريق التشبيه، من مكان مفتوح (مدن) إلى مكان مغلق (مقبرة)، فالعالم في نظره ((انطمس وجهه إلى الأبد فغدا مثل مقبرة))[31]، ومن لوازم المقبرة التي ذكرها الأشباح إلى جانب سبب الموت (الأمريكان)، وأيضا وصف لنا أحد مشاهد القتل (أجساداً معلقة على الجسر)، كل هذه الجزئيات تنقل المتلقي إلى مكان مقفر موحش ضيق هو المقبرة.

وفي قصيدة (دوار) يؤكد الشاعر إنَّ المقابر ما عادت تكفي لتحتوي جثامين الصبية الثائرين:

أبعد هدوءك عن جنوني
أيّها الشجر المسن
لأن صبيتنا أفاقوا
لم تعد كل المقابر في روابي الأرض تكفي[32]

يعد الكبت النفسي نوعاً من الانغلاق الذاتي، إذ إنّ ذات الشاعر مليئة بالهموم والأحزان ما جعله يلجأ للطبيعة حتى يترجم ما يعتمل في نفسه، فهو يتحدث مع الشجر المسن ويصف هدوءه، لعلَّ الشاعر يحمل في داخل نفسه بوادر الثورة فيضجره هدوء الشجر بدلالة الألفاظ المتضادّة في هذه المقطوعة (هدوء– جنون– مسن- صبية- مقابر– روابي)، فالشاعر استطاع توليف مفردات متضادّة بأسلوب منسجم من دون تنافر وبذا يصبح النص المُنتج ((نقطة جامعة لإشاعات وأضواء ذات مرجعيات مختلفة فضل المنتج فيها أنه استطاع توليفها وإحكام قبضته عليها وصياغتها على النحو الذي ينسجم والمعطيات التي يريد التعبير عنها))[33]، فإن استيقاظ الصبية سيملأ المقابر، وهذا هو المعطى الذي يعنيه، فـ(التابوت– الخنادق– الموضع) من التشكيلات المكانيّة المغلقة والتي تحمل سمة التضاد مع الشاعر استعملها الشاعر ليشحنها بدلالات الحزن والأسى، فعندما يواجه إنسان ظروف قاسية تكبل مشاعره؛ عندئذٍ يسعى الى ترجمة أحاسيسه من خلال النبرة الحزينة التي تسيطر على نصوصه الشعريّة، فيستعين- في بعض الأحيان- بالألفاظ المكانيّة المغلقة المضادّة كما أسلفنا، يقول في قصيدة (لو أنزلنا هذا التابوت):

أهزوجة موتٍ همجي
مثل زجاجٍ يتكسّر في حلق صبي
لم يألف بعدُ حروف الخبز المتيبس في جيب الموت
لم يعرف معنى أن يُحمل فوق الأكتاف على
خشبٍ مرمي في باب المسجد
تلتفّ عليه حشود ذباب ...
والمأمورُ يمرُّ على الأبواب ينادي :
من كسّر أعواد القصب ليصنع من غبشٍ
نايات ؟
من نثر الموت على أكواخ الفقراء
ليصنع من عبثٍ تابوتاً ؟
من زرع الليل جنازات[34]**؟**

إنَّ النظر الى عتبة عنوان القصيدة (لو أنزلنا هذا التابوت) يساعد كثيراً على فهم المضمون العام لها؛ لأنَّ ((نظام العنوان يعمل وفق قوننةٍ غاية في الحساسية، إذ يتبلور النصّ بموجبه، فإذا كان العنوان طويلاً ساعد على توقع المضمون الذي يتلوه))[35]، فالمقطوعة قد فسّرت العنوان تفصيلياً فهي تحمل كل الألفاظ المتعلقة بالتابوت (موت– حمل فوق الأكتاف– خشب ملقى في باب المسجد– جنازة)، فالمكان المغلق (تابوت) هنا معفراً بدلالة التوتر، وقد خلق جوّاً من الرهبة؛ لأنَّ القصيدة تضج بدلالات النهاية والفناء، وقد ساهم المكان المغلق في إيصال هذه الدلالات للمتلقي، إذ يشير إلى ذلك المعنى بقوله:

لو أنزلنا هذا التابوت على وطني
لرأيت على سعف النخل وجوه شباب
ولأورق زيتون الباب[36]

فالتابوت بما يحمل من دلالات لفناء وضعه الشاعر شرطاً لكي يورق الزيتون، فتحول الخطاب من التابوت وما يحمل من دلالة الرهبة من القادم وكونه مكانا مؤقتا للانتقال للنهاية الأبديّة الى سبب لرؤية وجوه الشباب المغيب في القبور إذا ما أُنزِلَ هذا التابوت على أرض الوطن ساهم في صنع فعاليّة لإعادة طرح الأفكار عن طريق التحولات المكانيّة، وبذلك فالمكان ((هو ذلك التكوين الذي يولد المشاعر المتناقضة كما لو كان هو القضية المعنية))[37]في صناعة النصوص الأدبيّة والأفكار.

ويتحدَّث الشاعر عن نوع آخر من الأماكن المغلقة، ألا وهو (الخندق) بوصفه مكاناً موحشاً لا شيء فيه سوى انتظار الموت، لكنّه وللمفارقة ينتظر حبيبته بين الخنادق، وبين رفات الراحلين إلى غير عودة، قال:

أسمك يا مَن أُصفّرُ اسمها في الليل قرب السيسبان
ضاع منّي بين أسماء الذين تفرقوا
في نزف عمري إذ افتِّش عن رفات منهم بين الخنادق
في ركام النخل
في وجع البنفسج
في ذبول السيسبان(38)

انتشار الخنادق في منطقةٍ ما هو دليل على انعدام الأمان فيها، وأنَّها مكان حرب وقتال، وشيوع الألفاظ التي تدل على الحرب (رفات– خنادق– ركام النخل– ذبول السيسبان) في نص واحد تكشف لنا عمق الشعور بالضيق النفسيّ الذي يمرّ به الشاعر، رسم الزبيدي مكان مغلق مضاد ليبعث لنا الشعور بالمكان المفقود لديه إذ ((يغوص المكان المفقود في عميق الذات الواعية بالفجيعة))(39)، فنراه يؤكد هذا المعنى في مقطوعات كثيرة .

فالخنادق أماكن محفورة في ذاكرة الشاعر تعني له الكثير وعند مشاهدته لها يسترجع ذكريات ماضية محملة بمشاعر متضاربة:

بين الخنادق ها هنا
كانت يداك تُحوّمانِ على جراح أصابعي
فتموت أحلام بكفي
تستفيق قنابلٌ(40)

ينغلق المكان على الشاعر ما يجعله يستذكر جراح أصابعه ويدي حبيبته المحيطة بهما، وهذا التذكّر بدوره يساهم في إشعال فتيل الثورة في داخل نفسه، فتموت أحلامه وتستيقظ نفسه الثائرة وهذا يدل على عدم التوافق بينه وبين المكان.

إنَّ انعدام التوافق مع المكان ينتج لنا بطبيعة الحال شخصيّة ثائرة على كل ما يعكر صفو الحياة حتى تستعيد ما تفتقده:

سأجعل صدري مجرفةً
تردم كلّ خنادق أمسي
وسأوقدُ ناراً في رأسي
فلعل القصب المفقود
يشتاق لصدري ويعود(41)

إنَّ فقدان الهوية المكانيّة كانت سبباً في ثورة الشاعر فوجود الخنادق، هو السبب في خسارة القصب والقصب هو رمز تراثي للمكان المحبب عنده، والزبيديّ يعيش في أجواء الحرب المشحونة التي تمثل عدوان على وطن كامل إلاّ أنّها ((تأخذ بالنسبة للشاعر، شكل عدوان شخصي عليه ، حضارياً ونفسيّاً ، يهدف الى إلحاق الأذى بأعز ما ينتسب إليه،... إنّ جزءاً لا يستهان به من الشعر العراقي الحديث، المكتوب عن الحرب، يتسلح بالتراث رمزاً وأفكاراً وقيماً مما يتصل بالصدام، والبسالة، والموت دفاعاً عن الأرض))(42)، لذلك ففقدان القصب يستفز مشاعر الثورة داخل صدر الشاعر.

الخاتمة:

لقد بيَّن البحث أهميّة المكان في البناء الشعريّ عند الشاعر هيثم الزبيدي، فقد مثَّلت تلك الأمكنة المغلقة، بما تعكسه من سوداوية على الذات البشريّة، حافزا مهما في استدعاء الذاكرة وتحفيز الكتابة عن مواضيع شتى كان أهمها الحرب والفقد، فالقبر والخندق وغيرها من الأمكنة الموحشة كانت تثير هاجس الصراع بين (الحياة والموت) في قرارة الشاعر الذي ما تخلّص إلى الآن من ثقل تلك الأمكنة وإرهاصاتها، من جانب آخر فقد أسهمت تلك الأمكنة في تشكيل وعي مضاد تكشف عنه الأبيات الشعريّة تمثَّل في رفض صور الموت بأنواعها كافة، ولا سيما الحرب التي ما تركت مكاناً في الوطن إلّا وأصابته بلعنتها، وهو ما وفَّر مادة شعريّة استطاع عن طريقها الشاعر إيصال رفضه بذلك النفس الشعريّ.

هوامش البحث

(1) شعريّة المكان في الرواية الجديدة – الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً، خالد حسين حسين: 60.
(2) إشكاليّة المكان في النص الأدبيّ : دراسات نقديّة ،د. ياسين النصير ،: 395.
(3) ينظر : فلسفة المكان في الشعر العربيّ ، حبيب مؤنسيّ: 140.
(4) جماليّات المكان في ثلاثيّة حنا مينه، مهدي عبيدي: 194.
(5) التشكيل الجماليّ للمكان وبناؤه الفني في الشعر العربي الحديث(1940م- 2000م) ، د. ياسر فضل صالح العامريّ: 21.
(6) استراتيجيّة المكان ، مصطفى الضبع: 63.
(7) بلاغة المكان، قراءة في مكانيّة النص الشعريّ، فتحية كحلوش: 141.
(8) ينظر: شعرية المكان ((بحيرة بين يديك)) أنموذجا ، خالد حسين: 62.
(9) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي: 45.
(10) بناء الرواية، سيزا قاسم ، 171.
(11) المصدر نفسه: 171.
(12) الفضاء الروائي في رواية سلاس ونوجة (رسالة ماجستير)، جدي صبرينة - دحماني فريدة: 27.
(13) ينظر: دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، جمال مجناح : 137.
(14) ما قال لي أحدٌ هُزمت ، هيثم الزبيدي: 75- 76 .
(15) الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. حسين علي الدخيلي: 64.
(16) جمالية المكان المغلق والمفتوح في شعر معد الجبوري ، عزت ملا ابراهيم وحسين الياسين: 10.
(17) الضباب ، هيثم الزبيدي :16.
(18) شبار الشوك، هيثم الزبيدي : 45.
(19) أسئلة الشعرية (بحث في آلية الإبداع الشعري) ، عبد الله العشي: 264.
(20) شبار الشوك ، هيثم الزبيدي: 65.
(21) الثنائية الضدية في قصص حيدر حيدر ((ثنائية المكان المغلق/ المكان المفتوح أنموذجاً))، د.عيد محمود فيروز: 128.
(22) شبار الشوك، هيثم الزبيدي : 99.
(23) ينظر:من الوجهة النفسية/ في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله: 58.
(24)بكاء الطاولة ، هيثم الزبيدي : 21.
(25) الشعر العربي المعاصر، د. عز الدين إسماعيل : 350.
(26)بكاء الطاولة ، هيثم الزبيدي : 28.
(27) علم الاجتماع والأدب، د. عبد الله العرفج : 49 .
(28) ما قال لي أحد هزمت ، هيثم الزبيدي : 81.
(29) الفضاء الشعري عند محمود البريكان ، وسيم عبد الأمير درويش (رسالة ماجستير) : 23.
(30) هوميروس أعمى ، هيثم الزبيدي : 28.
(31) الوقوف على حافة العالم، علي حاكم صالح: 56.
(32) الضباب ، هيثم الزبيدي : 25.
(33) فضاءات الشعرية (دراسة في ديوان أمل دنقل) ، د. سامح الرواشدة: 77.
(34) شبار الشوك ، هيثم الزبيدي: 66.
(35) تخطيط النص الشعري ، أ. د. حمد محمود الدوخي : 39.
(36) شبار الشوك ، هيثم الزبيدي: 68.
(37) إشكالية المكان في النص الأدبي ، ياسين النصير : 395.
(38) بكاء الطاولة، هيثم الزبيدي :18.

(39) المكان في النص السردي العربي: البنية والدلالة ، مبروك دريدي: 146.
(40) بكاء الطاولة هيثم الزبيدي: 22.
(41) الضباب ، هيثم الزبيدي ، 34.
(42)البنية الدرامية في القصيدة الحديثة دراسة في قصيدة الحرب، د. علي جعفر العلاق: 40.

المصادر والمراجع

1- استراتيجية المكان (دراسة في جماليات المكان في السرد العربي)، د. مصطفى الضبع، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1، 2018م
2- أسئلة الشعرية: بحث في آلية الإبداع الشعري، عبد الله العشي، منشورات الاختلاف، بيروت، ط1، 2009.
3- إشكاليّة المكان في النص الأدبيّ: دراسات نقديّة ، د. ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافيّة العامة وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ،ط1، 1986م.
4- بكاء الطاولة ، هيثم الزبيدي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط1 ،٢٠٠٠م.
5- بلاغة المكان قراءة في مكانية النص، فتحيه كحلوش، الانتشار العربي، بيروت– لبنان ، ط1، 2008م.
6- بناء الرواية دراسة مقارنة في "ثلاثية" نجيب محفوظ، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، (د. ط)، 1984م.
7- البنية الدرامية في القصيدة الحديثة دراسة في قصيدة الحرب، علي جعفر العلاق، مجلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد السابع، العددان الأول والثاني، أكتوبر 1986- مارس 1987.
8- بنية الشكل الروائي (الفضاء– الزمن– الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي– بيروت، ط1، 1990م
9- تخطيط النص الشعري معاينة سيميائية لفاعلية العتبة في صناعة النص الشعري، أ.د. حمد محمود الدوخي، دار سطور للنشر والتوزيع، ط1، 2017م.
10- التشكيل الجماليّ للمكان وبناؤه الفني في الشعر العربي الحديث(1940م- 2000م)، د. ياسر فضل صالح العامريّ، دار نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق- سوريا ، ط1، 2019م.
11- الثنائية الضدية في قصص حيدر حيدر: ثنائية (المكان المغلق/ المكان المفتوح) أنموذجاً، د. عيد محمود، فيروز عباس ، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، دمشق، المجلد 32، العدد 1، 2010م.
12- جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (حكاية بحار –الدقل –المرفأ البعيد)، مهدي عبيدي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب – دمشق، ط 1، 2011م
13- جمالية المكان المغلق والمفتوح في شعر معد الجبوري، عزت ملا ابراهيم وحسين الياسي، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، السنة العاشرة ، العدد التاسع والعشرون، 2019.
14- دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، جمال مجناح (أطروحة دكتوراه)، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2008.
15- شبّار الشوك، هيثم الزبيديّ، بوتيكا أوفر سيز، الولايات المتحدة الامريكيّة، نورث كارولانيا، العراق- بغداد، ط1، 2018م.
16- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، دار الثقافة ، بيروت– لبنان، د.ط، د.ت.
17- شعريّة المكان في الرواية الجديدة – الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً، خالد حسين، مؤسسة اليمامة، الرياض ، ط1 ، 2000.
18- الضباب، هيثم الزبيدي، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان ، ط١، ٢٠١٣م.
علم الاجتماع والأدب، د. عبد الله العرفج، كتاب المجلة العربية، دون طبعة، 1441ه.

19- الفضاء الروائي في رواية سلاس ونوجة (رسالة ماجستير)، جدي صبرينة- دحماني فريدة، كلية الآداب واللغات، جامعة بجاية، 2014- 2015م.
20- الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي ، د. حسين علي الدخيلي، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمَّان، ط1 ، 2011.
21- الفضاء الشعري عند محمود البريكان، (رسالة ماجستير)، وسيم عبد الأمير درويش، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كربلاء، 2015م.
22- فضاءات الشعرية (دراسة في ديوان أمل دنقل)، د. سامح الرواشدة، المركز القومي للنشر، د.ط، د.ت.
23- فلسفة المكان في الشعر العربي، حبيب مؤنسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د. ط)، 2001م.
24- لأنَّ هوميروس أعمى، هيثم الزبيدي، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب، بغداد ،ط١، ٢٠٢٢م
25- ما قال لي أحد هزمت،هيثم الزبيدي ، دار فضاءات ،عمان، ط١ ،٢٠١٣م.
26- المكان في النص السردي العربي: البنية والدلالة، مبروك دريدي، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1 ، 2020م.
27- من الوجهة النفسية: في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دون طبعة، 1947.
28- الوقوف على حافة العالم، علي حاكم صالح ، منشورات الجمل ، بغداد– بيروت، ط1 ، 2013م.